

أنت وحدك

تستطيع أن تقوم بعمل عظيم
بقلم الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

كانت الطبقات الفقيرة في مدن أوروبا وأمريكا تتكدس وتتراكم في مساكن ضيقة الأرجاء محتبسة الهواء تغمرها الظلمة في رابعة النهار . وكان الناس جميعا يرون أن هذه المحابس تصيب أجسام ساكنيها بالمرض والحزال ، وتنال أخلاقهم بالسوء والأذى ، فكانوا يزعمون شفاهم و يقلبون أكفهم ألما وأسى ، ثم يسأل بعضهم بعضا : وماذا نستطيع أن نفعل ؟

ولكن إحدى نساء لندن الفقيرات ، هي أوكافيا هيل ، رأت أنه لا يكفي أن تلقى هذا السؤال ، بل عليها أن تجده له الجواب . وكان جوابها أن اقترضت مالا استأجرت به ثلاثة منازل صالحة ، ثم أجزتها لجماعة من فقيرات النساء ، وأخذت تعلمهن خياطة الملابس ، ليكسبن من هذه المهنة ما يمكنهن من دفع إيجار مساكنهن ...

فالمرأة الفقيرة التي كانت تنزوى مع ثلاث أو أربع فقيرات أخريات ، في غرفة ليست فيها كوة واحدة ينفذ منها ضوء النهار أو ينصرف منها الهواء المسمم ، ولا تكاد تجد مع هذا من القوت ما يحفظ عليها رفق الحياة ، بله أن تبقى فيها الصحة والعافية والنشاط ، وتعرض بسبب هذا كله لألوان شتى من الرذائل والآثام — هذه المرأة صارت تسكن بمفردها في غرفة نظيفة أنيقة ، تلائم الصحة وتبث النشاط ، وصارت تمارس عملا مستجا يمكنها من أن تجد مع المسكن الصالح غذاء وافيا ولياسا واقيا ، وشيئا من متاع الحياة يهون عليها مشاقها وأعباءها ، ويصرفها عن كثير من الجوانب المظلمة المزدولة .

وبينا ظل أهل المدن الأخرى يتساءلون : ”وماذا نستطيع أن نفعل لهؤلاء الفقراء الذين يترامون ، كأكوام اللحم ، في محابس تعيث فيها جراثيم المرض وجراثيم الرذيلة“ ؟ كانت أوكافيا هيل قد أهدت عشرات المنازل الجميلة وآوت فيها مئات الأسر الفقيرة ، وأخذت تقيم في كل بيت ملعبا للأطفال يلعبون فيه ويمرحون ، بلينا أمهاتهم مكبات على حياكة الملابس التي توفرهن ولأولادهن أسبابا من الحياة الطيبة .

وترامت أنباء منازل أوكافيا هيل إلى سائر الأنحاء ، وسمع أصحاب البيوت أن مساكنها لا تخلو أشدة إقبال الناس عليها ، فراحوا يهدمون أبينتهم الخربة المتداعية ويقيمون مكانها بيوتا حديثة فسيحة ، يغمرها الضوء ويتجدد فيها الهواء ، وتبث في أهلها شعور الراحة والبهجة والاستقرار .

وكان هذا العمل هو احتواء الزحف في سهل إيسا من مودجيه للطبقات السفيرة ،
فقد رأت الحكومات المتقدمة أن البيت الصحي التنظيف يثبت في أهله الجدد والنشاط ويبحث
فيهم الرضى والطمانينة ، فأخذت تهدم ما في المدن من الأحياء الفقيرة التي كان يقبع فيها الفقراء
معرضين للأمراض والأوبئة فتفكك أجسامهم ، مستهدفين للزنازل والحباث تعصف بأخلاقهم .
وهكذا شقت هذه المرأة الفقيرة بمفردها ، منذ ثلاثة أرباع قرن ، طريقا تتسابق فيه
اليوم الحكومات الحديثة التي ترى أن "البيت" أحد المرافق العامة التي تؤثر تأثيرا مباشرا
في قوة الدولة ، فتوليها شطرا كبيرا من ميزانيتها ومن جهودها .



نشأت فلورنس نايتنجيل في أسرة ثرية رفيعة ، ودرجت في حياة حافلة بالرفه والنعمة ،
فكان نجمها يتألق في الحفلات والمنتديات العليا ، وظهرت في حفلات القصر الملكي ، وهذا
أقصى ما تطمح إليه فتيات الطبقة الرفيعة في إنجلترا .

ولكنها كانت تشعر في فرة قلبها أن عليها عملا أفضل من هذا وأسمى ، عملا أهم من
الوقوف أمام المرايا ، والتجول بين المتاجر ، واستقبال الضيوف وزيارة الأصدقاء ، والتفنن
في الظهور في الحفلات الساهرات الراقصات — فكانت تقول وهي في سن باكورة : "إن
ذهني يطالبني بأن أقنع وأرضيه ، ولن أقنع طبعي الطامحة بالزواج ولا بالصدقة ، ربى !
ماذا يرضيني ، وما هو مصري ؟" .

وبينا كانت كل فتاة مثلهاتفكر ليلها ونهارها في علاقات الصداقة والهوى ، تقسرف في زيارتها
وزينتها ولو أرهقت أرونها عسرا ، وتتأنق في حديثها حتى يخرج ألفاظا مقطعة متراخية لا تحسن
نطقها ، وتستقبل كل يوم صفا طويلا من الضيوف . وتمر كل يوم بصف طويل من المتاجر ،
ساعية هذا كله إلى "اقتناص" زوج أو صديق — بينما كان هذا شأن كل فتاة كانت فلورنس
تتوصل إلى أبيها وأُمها أن يسمحا لها بدراسة فن التمريض ، لتعمل ممرضة في إحدى المستشفيات .

كان هذا حدثا في المجتمع الانجليزي ! فتاة من أرق الأوسر حسبا وأوفرها مالا ، وهي على
حظ عظيم من الجمال والأنانة والذكاء ، تريد أن تعمل مالا يعمل به إلا بنات الطبقة الدنيا
سعيًا إلى الرزق والكفاف ؟

ولكن الفتاة أصرت على أن تهجر حياة الرفه والعبث ، وأن تؤدي عملا يرضى عقلها
ويريح قلبها . فلما قامت حرب القرم واشتبكت فيها بريطانيا ، لحقت بجيش بلادها لتعرض
بحراره . فأخذ أصدقائها وصديقاتها في حفلاتهم الراقصة يتساءلون : وماذا تستطيع فتاة
واحدة أن تفعل ؟ ... ولكن فلورنس أجابتهم عن تساؤلهم حين هبطت نسبة الوفيات بين
الجرحى من ٤٢ ٪ إلى ٢ ٪ .

كانت وسائل التمريض عقيمة جدا ، فكانت الجراح تحشى بآقمطن الملوث ريثا باقى الجراح بعد ساعات طويلة ، وكان الجرحى والمرضى يكذبون معا فى أماكن قلما يتنفس إليها الضوء أو الحرارة ، وكانت أوبئة الكوليرا والدوسنتاريا تعصف بالجند عموما ذريعا .

فوضعت فلورنس نايتنجيل نظاما حديدا للتمريض على أسس علمية صحيحة ، كما وجد فيها الجرحى والمرضى مثلا رفيعا فى روحه ، وخلقه ، حتى أطلقوا عليها لقباً من ألقاب القديسات هو " السيدة الطاهرة " وكأننا كانت هناك قوة روحية عظيمة تشع من وجهها وتفيض من حديثها ، فلا تكاد تدخل ردهة المرضى حتى يشمروا كأن أعباء المرض خفت عنهم كثيرا ، فكانوا ينتظرون موعد مرورها بصبر نافذ وشوق عظيم ، فلا تكاد تهل عليهم حتى تهلل وجوههم بشرا ورضا .

وعادت بعد الحرب إلى إنجلترا حيث استقبلت استقبالا شعبيا مجيدا ، ورفعها الكتاب إلى مصاف البطولات الخالدات فى صفحات التاريخ . فما من جندى جرح منذ حرب القرم حتى الآن إلا وهو مدين لهذه الفتاة التى وضعت أساس التمريض الحديث ، والتى أدت بمفردها ما كان الناس يعتقدون أن لا سبيل إلى أدائه إلا أن تتضافر الحكومات ، وتمهض الجماعات ، وتتفق أكادس الأموال !



فى تاريخ السجون مثالان على ما يستطيع الفرد الواحد أن يفعل إذا هو أخلص النية وصدق الجهاد .

كان أرنست كولز كاتباً فى إحدى محاكم الأحداث ، فرأى الصبي يدخل السجن غزا ساذجا ويخرج منه مشبعا بفكرة الجريمة حاذقا فنون الاجرام . ورأى أن الغافل الآثم لا يهذبه ولا يردعه إلا صديق يرشده ويهديه . فاقترح على جماعة من أصدقائه أن يتخذ كل منهم صديقا من أولئك الصبيان الذين يزولون فى بدء حياتهم . واستجاب أصدقائه لهذا رأى ، فلم يلبث أن رأى الناس هؤلاء الصبية الذين كان مقضيا عليهم أن يقضوا أعمارهم فى أوكار الجريمة والزدلية ، وقد اتخذوا طريقا سويا يحبون فيه حياة شريفة نافعة ، يعود خيرها عليهم وعلى المجتمع معا .

وقامت على أثر هذا حركة " الأخ الأكبر " التى شملت برعايتها آلافا من الصبيان الذين لم يلبثوا أن أقنعوا عن جرائمهم وصاروا أعضاء عاملين فى بيئاتهم ، وقد انشرت هذه الحركة بعد ذلك فى كثير من الشعوب ، وأصلحت كثيرا من جوانب الحياة ، مع أن الذى فكر فيها وبدأ بها لم يكن عظيما ذا جاه ، ولا محسنا ذا مال ، بل كان كاتباً بسيطاً ، منفردا ، ولكن إخلاصه لله .

وكانت السجون في القرن الثامن عشر كهوفا ومراديب يسام فيها السجناء سوء العذاب ويقاسون هول الأمراض ، فهاهنا أمهرها رجلا انجليزيا هو جون هوارد ، فقام يندد بما يقارف فيها من القسوة والغلظة ، ويدعو الى شيء من الرفق والرأفة ، فلم تنقض سنة واحدة على دعوته حتى عملت الحكومة على اصلاح سجونها لأول مرة . ثم خلفته في حركته السيدة اليزابث فرأى التي دوى صوتها في أرجاء الأرض جميعا ، داعية الى أخذ المجرمين بالشفقة والحسنى ، وبهذا قامت إحدى الحركات الانسانية النبيلة على يد سيدة واحدة ، كانت تعنى — وهى ما تزال فى سن العشرين — برعاية الفقراء والمساكين من جيرة .



وقصة " جيش الخلاص " مثل من أعظم الأمثلة التي تساق دليلا على أن رجلا واحدا يستطيع أن يؤدي من الخير ما يعجز عنه مئات وآلاف من الرجال .

هذا الجيش الذى يتألف الآن من ستة وعشرين ألف ضابط ، تنتشر كرائهم فى مائة وخمسين قطرا .

هذا الجيش الذى يصدر مائة وثلاثين صحيفة ، ويلقى محاضراته ومواعظه بأربع وسبعين لغة ، ويعقد كل أسبوع أكثر من أربعين ألف اجتماع فى جميع أنحاء العالم .

هذا الجيش الذى انشأ مئات البيوت والملاجئ ، أعدها لايواء الأطفال المشردين ، والمعجزة والمسنين ، ولرعاية الأمهات الفقيرات ، ولإسكان الذين لفظتهم السجون مشردين منبوذين .

هذا الجيش الذى يملك ويدير عددا كبيرا من المصانع ، والمزارع ، والبنوك ، وهيئات التأمين ، وهيئات المهاجرة ، والمستشفيات ، والمصححات ، ومنشآت الخدمة الاجتماعية المختلفة .

من الذى أنشاه ؟ هل ألفته حكومة ذات مطوعة وسلطان ؟ هل ألفه مليونير تبيع بملايينه لأعمال البر والاحسان ؟ هل ألفته جمعية ذات أموال وأعضاء وفروع كلا ! وانما ألفه قسيس بسيط اسمه " بوث " لا يتميز عن أى واحد من آلاف القسيس الذى تعج بهم كنائس إنجلترا ، إلا بروح مضطرم بالبر والخير والاحسان ، مكنه من أن يكتب فى التاريخ صفحة قلما كتب مثلها من أوتوا الحكم والجلاء والمسال .

نظر " بوث " فرأى الآثام والزنا تل تعصف بالناس عصفًا ذريعا ، فأبى على نفسه أن يمضى حياته قسيسا يؤدي الصلاة ويلقى المواعظ أيام الآحاد والأعياد ، مستمتعا بما يستمتع به أمثاله من رغد العيش وهدوء البال ، وأصر على أن يكرس ما بقى من حياته فى كفاح الجريمة

أعوانه ومريديه ، وبهم في مدن إنجلترا وقراها ، يقيمون أحياءها الفقيرة ، ويختلطون بعالمها وفلاحها ، ليحضوهم على الحياة الفاضلة بما يلقون عليهم من الخطب والعظات ، وما يذيعونه بينهم من الكتب والصحف ، وما يقومون به من زيارات خاصة للبيوت والأسرات ، ليحضوا الناس على ترك الخمر والميسر ، وأخذ أنفسهم بالعفة والطهارة ، وتدعيم الحياة الزوجية على أسس من العرف والحسنى .

وكان "بوث" وأعوانه يتعرضون في سبيل هذا لكثير من الضرر والأذى ، فكثيرا ما كان يعتدى عليهم السكروان والمقامرون ، ومن تؤجرهم مصانع الخمر وأندية الميسر لا يذاتهم ومقاومتهم . بل إن الحكومة كانت تتجنى عليهم وتناهم بشديد العقاب ، وقالت إحدى المحاكم في قضية لهم عرضت عليها : « إن السكر لا يبيع لأحد أن يتعرض للسكر ، كما أن حمل الساعة في جيب الصدرى لا يبيع للص اختطافها » وهو منطوق في غاية القراية ، لأن السكر رذيلة وليس كذلك الأمر في حمل الساعة ، ولأن التعرض للسكرى بالنصح والارشاد ليس كالعرض للناس بالسلب والسرقة ؟ وقد بلغ من أذى الناس لجنود جيش الخلاص أن أنشأ بوث مستشفى خاصا يعالجون فيه مما يصيبهم به الناس من الجراح والكسور ؟

ولكن الجيش ثبت وصمد ، وكثر جنوده ومؤيدوه ، فأتسع نطاق أعماله ، وأخذ يفتئ الملاجئ للأطفال والمسنين ، ويقيم المستشفيات للفقراء والمعوزين ، ويعد بيوتا للأئمة تجدد فيها الوالدات الرعاية والتمريض ، ويبني مصانع يعمل فيها العال المتعطلون ، ويستأجر مزارع للتعطيل الذين لا يحسنون الصناعة . وكذلك أنشأ بيوتا لمن تنظهم السجون ، فيعودون إلى حياة الحرية يلتمسون منها الرزق ، ريثما يزج بهم في السجن مرة أخرى . وأخذ يحض الناس على الاقتصاد في الطعام يوما في الأسبوع ؛ ليتبرعوا بما اقتصدوه للفقراء الذين لا يجدون الكفاف من القوت ، وغير هذا من مئات الخدمات الاجتماعية الجليلة التي عمت أقطار العالم جميعا ، وأفادت منها جميع الشعوب والطوائف خيرا جزيلًا ، وكل ذلك بفضل رجل واحد لم تنعده قلة جاحه وماله عن أن يكرس نفسه لخير الإنسانية عشرات السنين ، فآدى من ضروب الإصلاح الاجتماعى ما قد تعجز عنه حكومات بأسرها .



في سنة ١٨٤٤ تأسست في إنجلترا أول جمعية تعاونية ، هي جمعية " روتشيل " .

وفي سنة ١٩٣٧ بلغ عدد الجمعيات التي نمت من هذه الجمعية الأولى ١٠٩٤ جمعية .

وكان أعضاء الجمعية الأولى ثمانية وعشرين عاملا ، فصار أعضاء الجمعيات الحالية أكثر من ثمانية ملايين .

وكان رأس مال الجمعية الأولى ثمانية وعشرين جنيها ، دفع كل عضو فيها جنيها منها ، فصار رأس مال الجمعيات الحالية مائة وخمسين مليوناً من الجنيهات .

كيف تمت هذه "المعجزة" الاجتماعية الكبرى ؟

لم يكن الفضل في هذا السبيل للحكومة الإنجليزية ، ولا لأحد من أصحاب الملايين ، ولا للجمعية من هذه الجمعيات التي تملأ الصحف والأندية بالوان الدعاية الصارخة — وإنما الفضل الأول لثمانية وعشرين رجلاً من صغار العمال في أحد مصانع النسيج بقرية "روتشيل" تكاتفوا معاً — تحدوهم روح الاخلاص — على إنشاء جمعية تعاونية بسيطة ساهم كل رجل منهم في رأس مالها بجنيها واحد ، وأنشأت دكاناً صغيراً للبقالة يمد أعضاء الجمعيات بحاجاتهم القليلة ؛ فلم يكدر سنوات حتى صار لهذه الجمعية وفروعها بدلاً من هذا الدكان مصانع ضخمة ؛ وفروع فسيحة ، وأندية حافلة ، وأثر خطير في حياة إنجلترا الاجتماعية الاقتصادية .

وإذا عرفنا أن في العالم الآن زهاء سبعة آلاف جمعية تعاونية ، تضم مائة وخمسين مليون عضو ، وقيمة معاملاتها في كل سنة زهاء ستة آلاف مليون من الجنيهات — أدركنا مدى الأثر البالغ الذي أحدثه هذا النفر القليل من فساجي "روتشيل" في حياة العالم .



إن الأمثلة على ما يستطيعه "الفرد الواحد" أكثر من أن تحصى وتستقصى . وتلك الحركات الخطيرة التي ذكرناها إنما نضربها على سبيل المثال لا على وجه الحصر . فكثير من الحركات والهيئات العالمية الكبرى قامت بفضل رجل واحد ، أهم مميزات وأولى مسائله الاخلاص — الاخلاص للوطن الذي أنشأه ، وللإنسانية التي ينتمى إليها .

وفي وسع كل فرد منا أن يعمل عملاً عظيماً إذا هو تذرع بهذا الاخلاص . في وسعه على الأقل أن يصلح القرية التي أنشأته ، أو الحى الذى يقطنه ، أو البيئة الصغيرة التي يتردد في جوانبها . وإن يقف في سبيله — إذا خلصت نيته وصدق جهاده — قلة ماله أو ضعف جاهه . كلا : فما يتطلب الأمر من المصلح الاجتماعى الا أن يرسل الصيحة الأولى فتتردد أصدائها في الأنحاء . وميدان الإصلاح ك ميدان القتال : يرفع أحد الجنود لواء الجهاد ، فتدافع اليه جميع الأجناد ، ليقفوا من حوله صفاً واحداً .